الباب الثالث

الإحتــلال الصليبي للقــدس

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الثالث

الإحتــلال الصليبي للقــدس

استمر هذا العداء السافر منذ عهد الرسول الكريم (ﷺ) مروراً بالخلفاء الراشـدين، وقد كانت الحرب برفع الـصليب في معـارك فلـسطين واليرمـوك والـتي آلـت إلى خـروج البيزنطيين الروم من هذه الديار تحالف معهـم كـل مـن لا يريـد أن ترتفـع للإسـلام رايـة وهذا ما شاهدناه في الماضي ونعيشه الآن.

" نلاحظ أنه في القرن السابع والثامن للميلاد، كانت الجيوش الـتي تحـارب باسـم أول إمبراطورية إسلامية وهي (الخلافة)، قد توسعت حتـى بلغـت قلـب العـالم المـسيحي فاحتلت مقاطعات من الإمبراطوريـة البيزنطينيـة في سـوريا والأراضـي المقدسـة ومـصر، واتجهت غرباً حتى شمـال إفريقيـا وأسـبانيا وصـقلية ولم تكـن هـذه الفتوحـات عـسكرية خالصة، بل تبعها على مر السنين اعتناق للإسلام على نطاق واسع"[1]

تنامت لدى الغرب هواجس النظر إلى الشرق الإسلامي، ليس كقوة دينيـة فقـط، بل هو قوة كامنة في جميـع منـاحي الحيـاة فظهـرت لـدى الغـرب تـأملات كـبرى صـوب الإسلام، ليس النظر إليه من واقع ديني فحسب بل الدخول إلى مكنون هذا الدين العظـيم (المعجزة)، فكان لا بد من فهم لغة هذا الدين، فبرزت لـدى العديـد مـن علمـاء الغـرب فكرة تعلم اللغة العربية، التي هـي مـدخل لهـذا الـدين، ونظـرة أخـرى ألا وهـي ظـاهرة الاستشراق التي بدأت غراسها لدى العالم المسيحي الغربي لفهم مكنون هذا الدين.

لقد كان رمز الصليبيين(الفرنجة) شعارهم القائل " دمـروا الإسـلام " فلـيس أمـامهم إلا هذا الحل.

---

(1) د- حوراني، ألبرت،**الإسلام في الفكر الأوروبي** 0ط1، بيروت:الأهليـة للنـشر والتوزيـع، سـنة 1994م ص7.

الرواد الغربيون الأوائل الداعون لتعلم اللغة العربية :

إن أول من دعا إلى تعلم اللغة العربية في الغرب هو الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون سنة 1214 م – 1294 م وريموند لول 1235م – 1316 م وقد تبنى افكارهما مجمع فينا المنعقد سنة 1312م [1] ففي سنة1632م أنشئت أستاذية في جامعة كامبرج في بريطانيا، وفي سنة 1634 م أنشئت أستاذية أخرى في جامعة أكسفورد أيضا. ومن ذلك الحين بدأت دراسة المصادر العربية بشكل جدي وثابت، وظهرت صورة الرسالة الإسلامية أكثر وضوحا.[2]

حاول الباحثون ترجمة الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، ، وكانت الآراء المتباينة كما يلي:

1. الزعم القائل بأن هذه الحروب كانت نتيجة استيلاء الأتراك السلاجقة على بلاد الشام وسيطرتهم على طريق حج الفرنجة إلى القدس.
2. شعور الغرب الرومي بالهزيمة أمام السلاجقة في معركة ملاذ كرد عام 463 هـ وفق 1070 م مما أثار حفيظة الغرب لاسترداد هيبتهم.
3. الوضع المتردي في أوروبا في كل نواحي الحياة مقارنة مع الوضع الفكري والإقتصادي للعالم الإسلامي أثار الشراهة لاحتلال القدس بحجة تحرير قبر السيد المسيح من المسلمين، فمن أجلها انفجرت شرارة الحرب الصليبية، فعلى الرغم من المعارك الشرسة على المدن الأخرى لكنها لم ترسخ في أذهان المؤرخين ولم يخلد ذكرها كما خلدت القدس في هذه الحرب التي راح ضحية اقتحامها حوالي سبعين ألف مسلم في أكناف المسجد الأقصى، لأن هذه

(1) بنسالم، حميش، / **الإستشراق في أفق انسداده**،ط1؛ الرباط:مجلس القومي للثقافة العربية، 1991م ص.

(2) ألبرت حوراني – مصدر سبق ذكره ص 22.

المدن ما كانت إلا محطات على طريق بيت المقدس. ولا يمكن تجاوز القدس لأنها مفتاح النصر أو الهزيمة.

نظرا للصراع بين الفاطميين والعباسيين واستيلاء الفاطميين على أجزاء من بلاد الشام عام 1038م-1058م وانحسار نفوذهم فقد تسبب ذلك في إضعاف هاتين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين. استولوا الفاطميون على دمشق، فثارأهلها عليهم بقيادة (أتسز) " وعندما ثارت بيت المقدس ضد أتسز أخضعها في عنف وأحدث فيها مذبحة رهيبة سنة 466هـ 1076م، إلا أنه لاقى هزيمة ساحقة عندما هاجم مصر، وفرح أهل فلسطين ودمشق بما لاقاه، لما عانوا منه من شدة واستبداد، ونتيجة لهزيمته وجه ملكشاه أخاه إلى الشام، واسترد فلسطين من الفاطميين، ثم أقطع تتش قائد أرتق بيت المقدس."[1]

الحياة الاجتماعية في القدس قبل الغزو الصليبي:

"كان لمدينة القدس قبل احتلال الفرنجة بنية اجتماعية وإدارية خاصة بها شأنها في ذلك الشأن أي مدينة إسلامية أخرى في المنطقة، فكان بها طبقة حاكمة من الجند سواء من الفاطميين أو التركمان، ثم عامة السكان من العلماء والتجار الذين كانوا يشكلونالزعامة" العامة" وأصحاب المهن والحرف المختلفة.

حالة الغرب المسيحي قبل الغزو الصليبي لمدينة القدس:

عاش مسيحيو الشرق في رعاية الخلافةالإسلامية وفي حياتهم الاقتصادية والدينية في أمن واطمئنان، بيد أن هذا الحقد الصليبي المتعصب لم يخل من التشويه من قبل بعض الحجاج المسيحيين الذين شوهوا هذا الحال، ونقلوا إلى الغرب الذي كان يغط في سبات عميق صورة قاتمة عن حال نصارى بيت المقدس، مما أثار حفيظتهم وزاد في حقدهم على الإسلام والمسلمين، كما قام به بطرس الناسك من دعاية مغرضة وتجول في أنحاء الغرب المسيحي يدعو إلى تحرير القبر المقدس من المسلمين.

---

(1) عاشور، الدكتور سعيد عبد الفتاح، **الحركة الصليبية**،ج1 ص 105.

لقد كان لتلك الحملات فرصة سانحة لدى البابا لإمكانية توحيد الحكام الطائشين بغية إنجاز مشروع مشترك معهم وإقامة نظام ديني للحكم، وما دام بمبادرته فسيكون هو نفسه الموجه والمسيِّر، أمّا الحملات فكانت وسيلة لإرساء قواعد الكنيسة الرومانية في (الأرض المقدسة)من أجل فرض وحدة الكنائس بزعامة البابوية، "إن إقامة دولة لاتينية في سوريا وفلسطين ستعمل على خلق قاعدة لنفوذ الكنيسة الرومانية في الشرق."[1] وهذا يدل بوضوح على أن الحملات الصليبية لم تكن من أجل تخليص المسيحيين من المسلمين بل لها أغراض سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية."[2]

انطلاق شرارة الحروب الصليبية صوب القدس:

تجمّعت لدى الغرب المسيحي العديد من العوامل والمبررات المصطنعة، من أجل غزو بيت المقدس، فقد تم الاجتماع الأول الذي دعا إليه البابا أوربانوس الثاني في مدينة بلاصانس وقد تنادى إليه ما يزيد على مائتي أسقف ورئيس أساقفة وأربعة آلاف إكليركي وثلاثين ألفاً من العلمانيين، وقرروا إرسال حملة صليبية إلى القدس من أجل تحرير قبر السيد المسيح من المسلمين.

تبعه وتم اجتماع آخر عام 1095م في مدينة كليرمون وخطب البابا وخطب بطرس الناسك في الجموع وهرعت الجماهير من كل حدب وصوب من جميع أنحاء أوروبا، فكانوا مئات الألوف، ولم يكن لهم قائدٌ واحدٌ يأتمرون بإمرته ويسيرون على تعاليمه، بل أن هناك ما يربو على الأربعة والثلاثين قائداً ونيف.

الصليبيون في الطريق إلى بيت المقدس

انطلقت هذه الجموع الغفيرة صوب بيت المقدس حاملة أحقادها رافعة صلبانها غير منظمة جموعها، قليل تموينها، السلب والنهب والخطف منهاجها، فقد كانت أنباؤهم

(1) جار ودي،روجيه،**فلسطين أرض الرسالات السماوية** "ص 128.

(2) مصدر سبق ذكره – ص 148.

تسبقهم قبل حلولهم الأرض التي يعبرون إليها مما أثار فزع أهلها ومخاوف سكانها لما اقترفوه من فظائع وما أحلوه فيها من بشائع.

الصليبيون على أبواب بيت المقدس

كانت هذه الحشود تسحق كل مدينة تمر بها لا تفرق بين نصراني ومسلم إلى أن اقتحموا فلسطين فاتخذوا من الرملة قاعدة لهم للانقضاض على بيت المقدس، وأن الذي تزعم هذاالهدف جودفري، وفد إليه من مسيحيي بيت لحم يحثونه على الإسراع إلى القدس، ووعدوه أن يقدموا له المعونة .

تحصينات بيت المقدس:

تميّزت القدس بقوة تحصيناتها ومنعة أسوارها' لذا رأى بعض النصارى أن الفرنجة لهم مخلصين فيها، واستقبلوهم في كنيسة المهد، وأظهروا ما في نفوسهم من الفرح، فرفعوا الراية الصليبية على كنيسة المهد، وبعد ذلك لم يبق أي شك يخامر نفوس الصليبيين في نوايا مسيحيي بيت لحم، ولما علم جودفري بالأمر قرر السير إلى بيت المقدس في 6 يونيو سنة 493هـ – 1099م فعسكر الصليبيون أمام أسوار بيت القدس[1]، فالقدس مدينة حصينة منذ تأسيسها، كما أن موقعها الجغرافي، على رؤوس الجبال أهلها أن تحتل هذا الموقع الإستراتيجي العظيم، الذي أضفى عليها المنعة والحماية"[2]

عندما تناهى إلى مسامع افتخار الدولة حاكم هذه المدينة دنو الصليبيين من القدس، أخذ يعمل على تحصينها وشحنها بالعتاد والمؤن والرجال، فرمم الأسوار وقوى التحصينات وجهز الحامية التي أوكل إليها الدفاع عنها، وجلّهم من المصريين والسودانيين الذين يبلغ عددهم حوالي أربعين ألف مقاتل.أما الصليبيون فقد فرضوا الحصار على

(1) حبشي،د. حسن، **الحرب الصليبية** الأولى ص 15.

(2) العسلي، بسام – **فن الحرب الإسلامي (أيام الحروب الصليبية)**، بيروت:دار الفكر، سنة 1988م، ج4، ص، 265، 267.

المدينة فور وصولهم لها في السابع من يونية سنة 1099م (الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة 492هـ) وشرع قادة الجيش الصليبي في تضييق الخناق عليها، توالت جموع الصليبيين زاحفة صوب القدس، وأخذت تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، واتخذ كل قائد مع فصيلة من الفرنجة موقعه حول أسوار المدينة وفي خضم هذه الأحداث الجسام التي كانت تحيق بمدينة القدس حيث كان الحرب سجالا بين الطرفين، تناوب هذه الأحداث أمران وهما:

أولا: وصول ست سفن جنوية إلى ساحل فلسطين، حيث رست هذه السفن محملة بالمؤن والعتاد لدعم الصليبيين الذين يحاصرون القدس، مما زاد في ارتفاع معنوياتهم أمام المدافعين.

ثانيا: تناهى إلى مسامع الصليبيين أن الفاطميين في مصر قد أعدوا جيشاً ضخماً لنجدة بيت المقدس، مما عجّل في اندفاع الصليبيين صوب هذه المدينة لاحتلالها.

استطاع الصليبيون أن يبنوا برجين ضخمين ركزوا أحدهما بباب صهيون، أما الآخر فقد ركزوه بين بابي العمود وباب الأسباط، كما أنهم أنشأوا برجا احتياطياً ثالثاً، أغار المسلمون ليلا على برج صهيون وحرقوه وقتلوا من فيه من الصليبيين، أيقن الصليبيون أنهم عاجزون عن فتح بيت المقدس، فعادوا المحاولة كرة أخرى حيث عقد زعماؤهم مجلس شورى لوضع خطة جديدة لاقتحام بيت المقدس، فقاموا ليلاً بنقل البرج الخشبي المركب على الدواليب مع جميع مستلزماته إلى الجهة الشرقية من باب الأسباط ونصبوا آلات الحرب والمنجنيقان والكباش بين باب دمشق وبرج تنكر.

يوم الخميس الموافق 14 تموز سنة 1099م وعند شروق شمس ذلك النهار أمر القادة الجنود بالهجوم الشامل على مدينة القدس بجميع طاقاتهم البشرية، وعددهم العسكرية، وكانت أسلحتهم السيوف والنبابيت والخناجر والحراب والرماح والمقاليع، وكان الجنود يلبسون الدروع الموشاة بالصلبان، ويحملون الرايات التي رسم عليها

الصليب، والصور المختلفة والتماثيل. وكان كل قائد من الصليبيين يتقدم فيلقه، وعلى الجانب الآخر كان المسلمون في بيت المقدس يستبسلون دفاعاً عن مدينتهم، فأخذت الحامية تلهبهم بالنار الإغريقية، واستعملوا المواد الملتهبة والكبائر المشتعلة بالزيت والنشاب القوية، وكان لدى المسلمين أربعة عشر آلة حربية كبيرة مركبة على أسوار المدينة وأبلى المدافعون عن المدينة بلاءً عظيماً حتى مساء ذلك اليوم وفي اليوم التالي لهذه المعركة الشرسة، فقد تدافع المسلمون ضد البرج الذي كان فيه غودفري، واستطاع المسلمون أن يقتلوا عدداً كبيراً من رجاله في هذه الوقعة

وحل بهم العطش لبعد المياه عنهم، كادت الدائرة تدور على الصليبيين، لولا أن عاد الرجاء إليهم بإشاعة ألقاها بينهم رجال الدين قائلين "هو ذا القديس جاورجيوس، يطل عليكم من جبل الزيتون ! هو ذا العون الإلهي جاء ليحميكم ! فقاموا على اثر ذلك بالهجوم العنيف، وتمكنوا من دك البرج الكبير، فاجتاز الدوق دي لوربن من فوق الردم وأدرك السور وأمر غودفري بمد الجسر المرتفع، فمد، ومر عنه غودفري، وتبعه الآخرون، فدخلوا المدينة وأخذت النبال تنهال على المسلمين مثل المطر.

شهادات المؤرخين النصارى لمذبحة المسلمين في بيت المقدس

لم يختلف اثنان من المؤرخين على فظاعة الجرائم التي ارتكبها الصليبيون بحق المسلمين في بيت المقدس، لما ارتكبوه من أعمال فظيعة، وجرائم تقشعر لها الأبدان ستبقى وصمة عار في جبين الصليبيين على مر العصور. وقد استمرت هذه المذابح اسبوعاً والذي نجا من سكان بيت المقدس عومل معاملة الأرقاء"[1] والغريب أنهم قاموا بهذه الفعال التي تقشعر لها الأبدان باسم المسيح، الأمر الذي جعل الشرق يستقبل صلاح الدين بالترحاب، ويعتبره منقذاً ورحيماً.

(1) ميشو،مسيو، **تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**، ج1 ص 239.

يجمع المؤرخون من شتى النحل والملل على أن المجزرة الرهيبة التي قام بها، بما يسمى حراس القبر المقدس ومن جاء لتحرير قبر السيد المسيح والمسيح منهم براء، بأنها كانت مجزرة رهيبة أدمت قلوب العالمين والتي ما زال صداها يتردد في الآفاق إلى أن تقوم الساعة بما ارتكبوه من فظائع بحق المسلمين

أما بالنسبة لأعداد الضحايا الذين سقطوا في هذه المجزرة التاريخية كان حوالي سبعين ألفا في المسجد الأقصى المبارك، ثم استولى الإفرنج على أكثر سواحل البلاد في أيام المستعلي بأمر الله فملكوا يافا وقيسارية وغيرها من القلاع والحصون. وكانت محنة فاحشة.[1] فوحولوا قبة الصخرة إلى كنيسة وسموها (Templum Domini) وأعطى بلدودين جانبا منها إلى فرسان الهيكل.

في 22 تموز من عام 1099م عينوا غودفري دوبوين حاكما عليها، فرفض أن يتخذ التاج على رأسه لأن السيد المسيح وضع تاجاً من الشوك على رأسه ورفض أن يسمي نفسه ملكاً وطلب أن يطلق عليه اسم "حامي القبر المقدس" ونصب الصليبيون فوق قبة الصخرة صليباً كبيراً. أما المسجد الأقصى المبارك فقد اتخذوا منه مكاناً لأغراضهم المدنية وبنوا في الجهة الغربية منه مخزنا لأسلحتهم كما استعملوا التسوية التي تحت المسجد إسطبلا لخيولهم.

وعلى الجانب الإسلامي فقد هيأ الله _ سبحانه وتعالى – لهذه الأمة قادة شيّدوا صرح الإسلام من جديد، فالتف الناس حولهم، وكان من أبرزهم عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يخلّص إمارة الرها سنة 535 هـ من أيدي الفرنجة، ويوحد معظم أرض الجزيرة الفراتية والشام، في ظل حكومة واحدة يتولى زعامتها وتدين بولائها للعباسيين. ثم جاء نور الدين محمود المجاهد المخلص، ووجه ضربة سريعة للفرنجة، استعاد فيها الرها، حيث احتلها الفرنجة مرة أخرى عقب وفاة عماد الدين.

(1) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل،مصدر سابق، ج1 ص 308.

حكـام القـدس اللاتـين: لم يـستكن أهـل بيـت القـدس ولم يستـسلموا للمحتـل الغاصب، وما فتئوا كل يوم وليلة في إعداد العدة والتهيؤ ليـوم التحريـر مـن الـصلييين.إذ حكم مدينة القدس منذ عام 1099 م حتـى عـام 1291م خمـسة وعـشرون حاكمـا صـليبيا ابتداء من غودفري دي بويون وانتهاء بهنري.

الوضع الاجتماعي لنظام الحكم الصليبي في القدس

تألف المجتمع في مدينة القدس في هذه الفترة من:

1- الطبقة الحاكمة وهم الملك والأعيان.
2- رجال الدين (الكنيسة).
3- الإرساليات.
4- النصارى.
5- عامة الشعب. وهم من المسلمين وعليهم الغرم وللحكام الغنم فكانت تجبى منهم الضرائب ويدفعون الجزية، وكانت حالة المسلمين في أسفل دركة من دركات العبودية، وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم النظامية.

اتخذ الداوية وهم جمعية فرسان الهيكلTempliers والإسبتارية وهـم جمعيـة فرسـان المستشفى من المسجد الأقصى المبارك نزلا لهم ومكانا لتخزين الأسلحة ضد المسلمين.

obeikandl.com